هذه أمتي

شركسي يتحدث عن قومه

بقلم

راسم رستم

مؤلف :
- الاسلام والحرية الفكرية
- تاريخ الشراكسة (بالانجليزية)

القاهرة
١٩٤٧

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

منعاً للالتباس ، يعلن المؤلف أن هـذه الرسالة هى غـير كتاب (الأديغة — الشراكسة — قديماً وحديثاً) الذى أعلن عنه، والذى حالت ظروف قاهرة دون إصداره . والفكرة من إصدار هـــذا الكتيب موضحة فى صدره .

وقد أهـــدى المؤلف خمسمائة نسخة من هذا الكتيب للنادى الأهلى الرياضى بعمان (شرق الأردن) ، تقديراً لجهود النادى الرياضية والثقافية ، وتأييداً لرسالته السامية .

القاهرة أول اكتوبر ١٩٤٧ المؤلف

- ١ -

نظرة عامة

هـذا ليس كتاباً .

وانما هى رسالة مقتضبة قصدت منها تعريف القارىء ببعض أحوالنا ، وشىء عن تاريخنا ، وابراز بعض الآثار التى تركناها فى حياة البلدان التى حللنا بها .

وعند ما نتكلم عن تاريخ الشراكسة ، فانما نتحدث عن صفحة من أنصع صفحات التاريخ البشرى ، وكذلك من أشدها بؤساً وشقاء فقد كتب الشراكسة صفحات تاريخهم منذ القرن السادس عشر بدمهم دفاعا عن حرية أوطانهم وسلامة عقائدهم ، وليس هذا مايحزننا ، ولكن يؤلمنا أشد الألم أننا اضطررنا إلى هجرة بلادنا حوالى العام ١٨٦٦ فهاجر أجدادنا إلى تركيا وبلاد الشرق الأدنى وأوروبا. حيث لاحقتهم المصائب ، فقضى منهم الكثير ، وعاملهم سكان البلاد الأصليون معاملة الأجانب الدخلاء ، فاضطهدوهم ، وحاربوهم ، إلى أن استقر الأمر وهدأت الأحوال . وحل التفاهم محل الخصام.

وأما موطننا الأصلى فبلاد القوقاز ، وهى بلاد جبلية باردة ، تغطيها الثلوج أكثر شهور الشتاء . وفى بعض المناطق أكثر شهور السنة . وفيها السهول الخصبة والمروج الخضراء اليانعة ، وفيها الأحراج الكثيفة التى يصعب فى بعض الأحيان اختراقها لشدة كثافتها . وفيها بساتين الفاكهة المترامية الأطراف . والخلاصة ، أنها من أجمل بقاع الأرض ، وأخصبها ، وهواؤها صحى جميل ، ومن ذلك كانت أجساد الشراكسة والشعوب القوقازية بوجه عام كاملة النمو ، وبنيتهم قوية شديدة الاحتمال ، رياضية التركيب جميلة المنظر

وبلاد القوقاز ، كما هو معلوم ، غنية بمعادنها . ففيها الحديد والذهب والفضة والكروم والنحاس ، وفيها البترول بغزارة ، وهى لهذا السبب كانت دائما محط أنظار الفاتحين والغزاة ، من الشمال والجنوب .

ونحن ، الشراكسة ، من الشعوب الآرية البيضاء . والعنصر القوقازى ، كما هو معلوم ، أصل السلالات البيضاء وأنقاها . وفيها ذوو الشعور الشقراء ، والعيون العسلية أو الزرقاء ، كما يوجد بيننا ذوو الشعر الكستنائى ، ولكن البشرة بيضاء صافية ، وتحتها تجرى دماء حرة من أنقى ماعرفته البشرية.

وقد جاء ذكرنا فى كتب مؤرخى اليونان القدماء ، مثل هيرودوت واسترابون وسيلاكس . وهؤلاء كانوا يسمون الشراكسة بأسماء

مختلفة مثل :سركس وكركت وكركس . كما أن بعض مؤرخي بيزانطة قد اصطلحوا على تسمية بلاد الشراكسة (قازادخيا) ولعل هـذه الكلمة الأخيرة مشتقة من كلمة (قوقاز) . وقد ذكر البستاني في دائرة المعارف جزء ١ ص ٤٤٠ أن مؤرخي القرون الوسطى كانوا يذكرونهم باسم (سيراكس) ، وجميع هؤلاء المؤرخين أشادوا بمدنية الشراكسة القدماء وحسن صفاتهم ، حتى أن هوميروس المؤرخ والشاعر اليوناني القديم ، جعل بلادهم مرسحاً لإلياذته المشهورة ، كما أن أساطير اليونانيين القدماء تروي أن الاله بروميته نفي إلى بلاد القوقاز واعتقل بها .

ولعل أهم ما عين به الشراكسة قديماً وحديثاً الشجاعة المنقطعة النظير ، لا تثنيهم المخاطر عن بلوغ المراد ، بل ولا الموت . وحياتنا سلسلة من المعارك والحروب . ومجدنا قائم على احتفاظنا بوطننا زهاء مائة عام خضنا خلالها مر القتال وأذقنا عدونا بعضاً من بأسنا ، إلى أن اضطرتنا القوة العددية إلى هجرة بلادنا ، رافضين البقاء في وطننا بعد ان احتله الغاصب واستولى عليه .

ومن أهم صفاتنا ، كذلك ، الكرم المتناهي . ومن الأمثلة الشركسية المثل المعروف « دار لاضيف فيها لا بورك فيها » . ولا يصح مطلقاً سؤال الضيف عن موعد سفره ولا عن سبب حضوره ونعتبر ذلك منافياً للآداب والذوق السليم . ومنها الوفاء بالوعد ، واجارة المستجير والتمسك بالشرف والمحافظة على الكرامة .

ومنها الصدق والصراحة المتناهية . ولعل هـــذه الصفة هى التى منعتهم من أن يكونوا تجاراً وأرباب أموال ، لأنهم أبعد مايكونون عن الحيل والأساليب الخاصة التى يجب أن تتوفر فى التاجر الناجح .

ومن مفاخرنا القديمة شدة محافظتنا على العرض والكرامة ، فدون ذلك الموت الزؤام . ومن تهاون فى ذلك طردته قبيلته ، ونظمت فى حقه القصائد المشينة ، وكلما ذكر اسمه لايذكر إلا مقرونا بالسخرية والاحتقار .

وتمتاز المجتمع الشركسى بعدة امور منها :ـــ

أولا ـــ إنعدام الفقراء والمتسولين ، فلم يشهد تاريخنا متسولا شركسيا واحدا وهذا مرجعه إلى الأنفة الشركسية والكرامة الشخصية فلن تجد شركسياً يمد يده طالبا الإحسان . مهما ضاقت به الظروف وانحدرت الاحوال .

وقد ساعد على انعدام السؤال بين الشراكسة تعاونهم ومساعدة أغنيائهم لفقرائهم مساعدة تكاد تكون متصلة .

ثانيا ـــ احترام المرأة ومحبتها ، إلى حد لا يوجد حتى فى أرقى الامم تمدنا فى عصرنا الحاضر . من ذلك : أن المرأة الشركسية لا تقوم بأعمال الخدم أو الاعمال الشاقة التى هى من وظائف الرجل . ولكن ذلك لم يمنع من أن تقوم الزوجة بمساعدة رجلها ومعونته كلما اقتضاها الامر ذلك

وتفرض عادات الشراكسة على الرجال الوقوف إذا مرت بهم سيدة ، والترجل عن الخيل اذا كانوا ركوبا ، حتى ولو لم تكن لهم بالسيدة معرفة سابقة . ولا يصح ارتكاب جريمة فى حضرة آنسة أو سيدة ، أو التفوه بألفاظ جارحة أو خارجة عن الأدب . كما أنه لو التجأ فار أو قاتل إلى سيدة فهو آمن ما دام تحت سقف بيتها ، ولا يستطيع أحد أن يعتدى عليه مادام فى حرمها

ثالثا — احترام الكبير . فالأب هو رأس العائلة وكلمته نافذة على الجميع . وإذا اجتمع كبير وصغير فاحترام الكبير واجب. وللعائلة الشركسية تقاليد اجتماعية تجعلها فى مصاف أرقى العائلات أدبا ونظاما .

وقد بلغ احترام الشراكسة لكبرائهم انهم كانوا يقفون اجلالا إذا ماذكر اسم أحدهم حتى ولو لم يكن حاضرا

رابعا — لا توجد فى اللغة الشركسية كلمات نابية . فالشراكسة لا يتشاتمون ، ولا يعيبون بعضهم بأقبح النعوت . ولعل الشراكسة من شعوب الأرض المعدودة التى لا تحتوى لغتهم على الفاظ الشتائم وعبارات السباب الدنىء.

خامساً — النظافة . فالشركسى نظيف بطبعه ، والشركسية مغرمة بتنسيق دارها وجعلها فى حالة دائمة من النظافة . حتى منازل الفقراء تجدها على بساطة أثاثها ومحتوياتها خاليـــة من الشوائب ، حسنة الترتيب ، بالغة النظافة وقد شهد بذلك كثيرون من السياح الأجانب

الذين جابوا بلادنا ودرسوا أحوالنا .

وحياة الشراكسة الاجتماعية مقيدة بقواعد وأصول مرعيـــة تعرف (بالأديفة خابزة) وهذه القواعد يراعيها الجميع لا فرق بين كبير وصغير ، أمير أو صعلوك ، وهى تحدد مكان كل فرد ، وواجباته وحقوقه ، وفيها حكم لكل ماقد يطرأ على حياة الشركسى ، فهى أشبه بدستور اجتماعى منظم ، حفظ الأمة من الانحلال والانفكاك طيلة هذه القرون والأعوام .

وأما ديننا فالإسلام . وقد أخذنا دعن الاتراك وخانات القرم . وكان قبل ذلك بعضنا نصارى ، والبعض الآخر يؤمن بعادات وعقائد دينية خاصة . ومن عاداتهم الوثنية عبادة بعض الأشجار ، كما كانت لهم آلهة متعددة ، منها : إله الحصاد وإله الحرب وإله الحب وإله الريح وإله البحر وغيرها . وكانت لهم معابد أو هياكل وثنية تقام فيها الصلوات وتنحر فيها الذبائح . وكثيرا ما كانت تقام احتفالاتهم الدينية فى العراء أو تحت إحدى الأشجار المقدسة . وكان يقوم بالطقوس الدينية كاهن مختص .

وفى عهد جوستنيان الامبراطور الرومانى انتشرت المسيحية فى بلادنا ، وجاءها كثير من الرهبان الذين أسسوا الأديرة والكنائس . وأول ما استوطن الرهبان بلاد القبردى فى جهة تبعد حوالى خمسة كيلو مترات إلى الشمال من مدينة نالتشك عاصمة القبردى الحالية . ومازالت فى بلادنا بقايا هذه الكنائس والمعابد المسيحية ، كما أنه مازالت بين شعبنا بعض بقايا التقاليد المسيحية ، مثل لبس السواد ،

واحياء رأس السنة المسيحية، وكانوا ومازالوا يسمون يوم الأحد (يوم الله) ولسيدنا عيسى عليه السلام منزلة عظيمة واحترام مقدس. وأما الإسلام فاول من آمن به فى القوقاز هم الكرج وبعدهم الداغستانيون ثم القبردى (فى القرن الثانى عشر الميلاد)، ومنهم انتشر فى عموم بلاد الشراكسة

وأما لغتنا فاللغة الشركسية. وهى لا تشبه أية لغة من اللغات المعروفة فالكنها تحتوى على جميع الاصوات الخاصة باللغات الاندو — أوروبية، وليست، بوجه التأكيد، من اللغات التترية أو الطورانية. كما انها تحتوى على كلمات كثيرة تشابه الكلمات الاوروبية. وأداة التعريف غير موجودة باللغة الشركسية، كما انها خلو من علامات التذكير والتأنيث (ماعدا لهجة الابازة). وتمتاز اللغة الشركسية كذلك بكثرة الاحرف الساكنة، وبعض الكلمات الشركسية لايتركب من أكثر من مقطع واحد أو مقطعين. كما تحتوى اللغة الشركسية على بعض الكلمات المركبة من كلمتين أو أكثر

وأما عددنا فيبلغ المليونين، مشتتون فى القوقاز (وطننا الاصلى) وتركيا وسوريا وشرق الاردن وفلسطين ومصر وبعض بلدان أوروبا. وكان عددنا إلى حين قيام الحروب الشركسية — الروسية حوالى ستة ملايين، هلك أكثرهم فى القتال، وهلك حوالى النصف مليون أثناء الهجرة من تأثير الجوع والمرض. والعدد الاكبر الآن موجود فى تركيا (حوالى المليون)، وفى القوقاز حوالى النصف مليون، والباقون مشتتون فى بلاد مختلفة.

— ٢ —

مجتمعنا وعاداتنا القومية

كان المجتمع الشركسى يتألف من عدة طبقات هى : (الأمراء) ، وهم حكام البلاد أثناء السلم وقادتها فى الحرب . (والنبلاء) وهم يلون الأمراء فى المرتبة ولهم إمتيازات خاصة . (والشعب) وهم طبقة الزراع والصناع والأحرار . و(الأتباع) وهم فى الغالب أسرى الحرب ، وإليهم كانت توكل خدمة الأمراء والنبلاء . وظل هذا النظام سائداً حتى ألغته روسيا أثناء الاحتلال ، بعد أن كان آخذاً فى الاضمحلال والزوال (١) .

وتتألف الأمة الشركسية من مجموعة قبائل كبيرة وصغيرة ، أهمها حسب ترتيب الحروف الهجائية : الأبزاخ ، والأبازه ، البسلنى ، البزادوغ ، الحاتقواى ، الناتخواج ، القبردى ، الشابسوغ ، والأوبيخ ، ولكل من هذه القبائل لهجة خاصة ، إلا أنها متقاربة . وأكبر هذه

---

(١) كان الأمراء (وبالشركسية بشي) عرضة للعزل إذا تهاونوا فى الحرب أو فى تنفيذ العادات والقوانين المرعيه أو أتوا مما يحط من كرامتهم . وتنتقل الألقاب وراثة من كبير العائلة لأولاده ؛ إلا أنه يصح أن يرفع إلى درجة النبلاء (وبالشركسيه ورق) من أتوا بأعمال جليلة أو أظهروا ذكاء وعبقرية خاصه أو امتازوا فى المعارك بشجاعة نادرة .

القبائل عدداً هم القبردى . ولهم الآن حكومة ذاتية ضمن نطاق الاتحاد السوفيتى . وكان لكل أسرة كبيرة علامة خاصة تتميز بها . وتخصيص هذه العلامات من اختصاص مجلس نبلاء القبيلة . وتوضع هذه العلامة عادة على الخيل والسلاح والدواب وكل ما كان خاصاً بالعائلة .

(وكان الشراكسة يتفاخرون بأنسابهم) وعائلاتهم ولا يذكر أحد إسمه إلا ملحوقا باسم القبيلة أو العائلة . ومثل هذا النظام شائع الآن فى الامم الأوروبية والامريكية إذ ينادى الشخص باسم عائلته فيقال مستر ملر .. ولا يقال مستر جيمس مثلا .

وكان الشراكسة يبنون قراهم على سفوح الجبال ، تحوطها الاشجار من كل ناحية . وتتألف القرية عادة من خمسين إلى مائتى بيتاً مبنية بالطوب (القرميد) أو الأحجار أو الخشب . وسقفها محدودب ، مقام على أعمدة فى وسط البيت . ويتألف البيت عادة من أربع إلى ثمانى غرف ، وملحق به أسطبل للخيل والماشية ، ومخزن للحبوب .

وكان الشراكسة يصنعون الكراسى والمناضد من ثلاثة أرجل فقط ، كما كانوا يصنعون أسرتهم من الخشب . ويرجع استعمالهم للأسرة الخشبية إلى ما قبل خمسمائة عام .

كرسى ذو ثلاثة أرجل . كان استعماله شائعا فى شمال القوقاز (١ على ١٧ من الحجم الطبيعى)

وكانوا يزينون جدران منازلهم الداخلية بمختلف أنواع الأسلحة والطنافس التى كانوا يشترونها من بلاد العجم . وقد استعمل الشراكسة منذ القدم الصحاف والملاعق الخشبية ، وكذلك الأوانى المصنوعة من الخزف الملون .

وأما لباسهم ، فقد اشتهر بين كافة شعوب القوقاز حتى أخذه عنهم أكثرها . وأخذه عنهم كذلك القوزاق والروس . وكان القيصر يرتديه فى الحفلات الرسمية وحفلات الجيش . وأخذ الأتراك عنهم لباس الرأس (القلبق) ، وكذلك أخذت نساء الشعوب المجاورة عن نساء الشراكسة زيهن . ويمتاز اللباس الشركسى بطابعه الحربى ، فهو لباس الرجل المقاتل ، كما يمتاز بكثرة مايوشونه بالذهب والفضة . ويتمنطق الشراكسة بالقامة (الخنجر الشركسى) المطعم بالفضة والأحجار الكريمة ، ولايستغنون عنها مطلقا . كما كانت نساؤهم تلبس الثياب الحريرية الفضفاضة ، والأحزمة الفضية والذهبية . وكانوا يضعون الذهب أحيانا على أحذيتهم . وأما القلبق (لباس الرأس) فيصنع من الجلد وما زال استعماله شائعا حتى الآن فى تركيا وفلسطين وسوريا وشرق الاردن .

(والشراكسة زراع ماهرون) وقد ساعدهم على ذلك خصب أراضيهم ووفرة المياه . وقد زار بلادهم الرحالة الانجليزى (جيمس بل) عام ١٨٢٦ فوصف حقولهم بأنها تضارع فى تنظيمها وغلتها أحسن حقول يوركشاير بإنجلترا . وكانوا يزرعون الحبوب بأنواعها

والكرم ، والتبغ والفاكهة . وكانت الحنطة تنمو إلى علو ١٨٠سم.

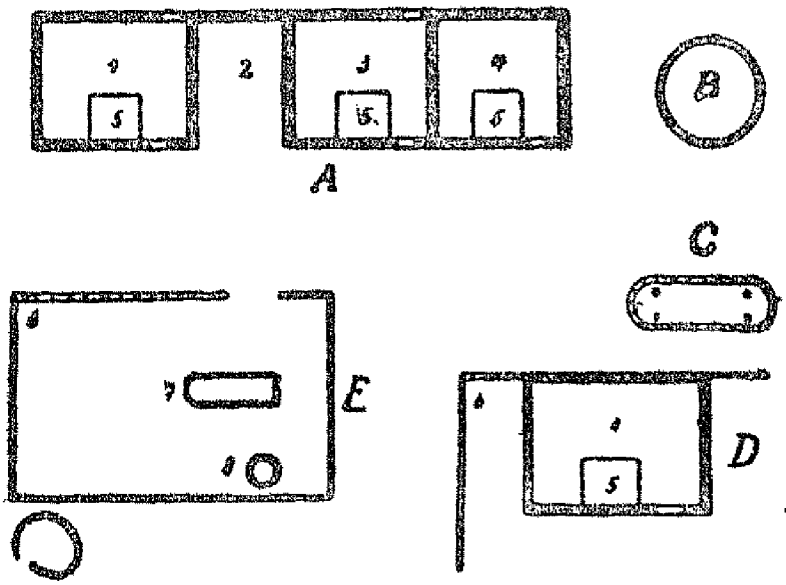

خريطة تمثل إحدى المزارع الشركسيه فى قرية (بيرد) . (A) - المنزل . (1, 2, 3, 4) - غرف . (5) - مدافى . (2) مدخل فضاء . (B) - اسطبل . (C) - مخزن للحبوب والعلف . (D) بيت ويستعمل كاصطبل فى الشتاء . (E) قاعة كبيرة مسورة للاحتفالات

وكانوا يهتمون كذلك ببعض الصناعات الزراعية كتربية النحل لاستخراج العسل وصنع الألبان والجبن الشركسى المشهور، والزبدة . كما اشتهروا كذلك بتربية الخيول وتجارتها. والخيول الشركسية مشهورة بشدة احتمالها واستطاعتها تسلق الجبال . وكانوا يصدرونها لتركيا .

(وقد اشتهر الشراكسة منذ القدم بإتقانهم للصناعات المعدنية كالسيوف والخناجر الموشاة توشية دقيقة بالذهب والفضة ، وكذلك صياغة الحلى من الذهب والفضة ، كما اشتهروا بحياكة الأقمشة) وكانت العائلات الشركسية تصنع أكثر لوازمها بأيديها . من لباس الرأس حتى الأحذية ، كل هذه كانوا يصنعونها بأيديهم ويفاخرون بعضهم بعضا فى إتقانها وجودتها . وبعد اكتشاف البارود ، كان الشراكسة

يصنعونه من زبل الأغنام ، كما كانوا يصنعون (الطبنجات) وبعض أنواع الأسلحة النارية .

وقد كشفت البعثات الأثرية فى بلاد الشراكسة عن تماثيل منحوتة فى الحجر ، كما أثبتت أن الشراكسة هم أول من اخترع ابرة الخياطة من الحديد والبرونز ، وكذلك أمشاط الشعر (١) .

وأما النقود التى استعملوها فى القديم فهى النقود اليونانية ثم الرومانية ثم الكوفية (العربية) ثم النقود القوقازية التى سكها ملوك الكرج (جورجيا) .

° ° °

وفيما يلى بعض عاداتنا مما تميز به قومنا نذكره اجمالا :

الزواج : (بالرغم من سماح الدين الإسلامى الذى ندين به بتعدد الزوجات أو الطلاق فان الشراكسة لم يبيحوا لأنفسهم استعمال هاتين الحريتين فحددوا الزواج بواحدة ولم يلجأوا إلى الطلاق إلا فى الحالات القصوى

ويتخير الشراكسة زوجاتهم عادة بعيداً

طبنجه من النوع الذى كان يصنعه ويستعمله الشراكسة خلال القرنين السادس والسابع عشر (على الحجم الطبيعى)

( ) تاريخ القوقاز ص ٢٤١ .

مزرعة لتربية النحل فى إحدى القرى التركية . لاحظ الخلايا المصنوعة من جذوع الأشجار المجوفة . وهذه الصناعة كانت من دعائم الحياة الاقتصادية فى بلاد التركمان

عن ذوى قرباهم ، فهم لا يتزوجون بنات الخؤولة أو العمومة إلا فى النادر جداً . وهم يعتبرون أولئك بمثابة أخوات لهم ومن عائلة واحدة .

والشاب ملء الحرية فى اختيار شريكة حياته ، بشرط أن تكون من طبقته الاجتماعية . وتبيح التقاليد التركية للفتاة أن تخالط من تشاء من الشبان الأكفاء ، ولها (مضافة) خاصة تستقبل فيها زوارها . فاذا ماوقع خيارها على أحد الشبان ، تقدم الشاب لخطوبتها من والدها وتجرى مراسيم العرس بعد ذلك على الطريقة الإسلامية وتقام الافراح مدة سبعة أيام ، يكون العريس خلالها ضيفا على أحد أصدقائه .

واذا آنس الشاب معارضة من أهل الفتاة عمد إلى (خطفها) بمعاونة بعض أصدقائه ، فيأخذونها إلى بيت أحد الكبراء ، وهذا يبلغ والد الفتاة أن ابنته موجودة عنده فيجتمع كبراء الطرفين لاتمام اجراءات الزواج الشرعية . واذا حدث وعارض والد الفتاة فى اتمام الزواج ، نتجت عن ذلك مصادمات دموية عنيفة . إلا أن والد الفتاة كان يرضخ فى الغالب لحكم الواقع وتتم مراسيم الزواج بالطريقة المعتادة .

ولا تسمح التقاليد الشركسية مطلقا بسكنى الصهر مع الزوجة ووالدها فى بيت واحد . كما أن الزوج لايدخل على زوجته نهارا ، ولا يتناولان طعامهما معاً ، فى حالة وجود أحد والديه فى المنزل إذ كان يتناوله حينئذ مع ضيوفه أو بمفرده فى غرفة الإستقبال أو (المضافة) .

وينقضى عام قبل أن يستطيع الصهر مقابلة حميه والإجتماع به . وتقام لهذا الغرض حفلة خاصة لها مراسيمها وأصولها .

ومن تقاليدنا فى الزواج ألا تكلف العروس بعد زفافها بأية خدمة لمدة طويلة قد تبلغ العامين ، ويقوم بخدمتها فى هذه المدة أترابها وصاحباتها وقريباتها .

ويغالى الشراكسة بدفع المهر . ويعتبرونه مقياسا لرفعة العائلة . ويهتمون به كل الإهتمام .

الوفاة : كان الشراكسة القدماء (فى القرن السادس عشر

وما قبله) . يعرضون جثة النبيل مدة اسبوع بعد نزع الأحشاء ، ويقوم بحراسة الجثة رجلان من أقرباء المتوفى كما تقوم فتاة وبيدها سهم ربطت على طرفه قطعة من الحرير ، بأبعاد الحشرات عنه . ثم يدفن الميت بكامل ثيابه ومعداته الحربية ، ويستمر الحداد أربعين يوما . ويلبس أهل الميت السواد مدة عام ، وبعضهم يلبسها مدة عامين كاملين .

وإذا كان المتوفى شهيد حرب ، فيحرم لبس السواد ، وإقامة المآتم ، فيحضر الجميع الجنازة بملابسهم البيضاء . ولا يجوز ذرف الدموع مطلقا على الشهداء ، فيكتفى بإنشاد بعض القصائد الحزينة المناسبة فى رثاء الميت وتعديد مناقبه .

الرقص والأغانى : يختلف رقص الشراكسة عن سواهم من الشعوب وهو على ثلاثة أنواع رئيسية (١) ويج (٢) قافه (٣) ششن . وأكثرها شيوعا هو (الويج) ، ويقوم به جملة شبان وشابات على أنغام الأكورديون التى تقوم بالعزف عليها شابة من الحاضرين .

ولا تشترك المتزوجات فى الرقص ، إذ هو مقصور على الأوانس فقط . وتدار خلال الرقص أكواب شراب الشراكسة القومى (الباخسمة) . وهو شراب كحولى مصنوع من خمير القمح أو الذرة ، وتقوم بتقديمها للحاضرين إحدى الفتيات .

ومكان الأوانس يكون دائماً فى الجهة اليمنى للرجل المراقص لها .

وأما الأغانى فكان ينظمها الشعراء وبالشركسية (جه جوا كوّه) ويمكن قسمتها إلى قسمين رئيسيين وهما :

(١) ورد — وهى الأغانى والقصائد التى تصف الحياة القومية والوقائع الحربية وحوادث الحب والقصص الخيالية المسلية . وتعتبر هذه الأغانى موردا هاما لتاريخ الشراكسة لكثرة ما احتوته وسجلته من الحوادث الهامة وأنباء الوقائع الحربية الفاصلة فى التاريخ الشركسى . ويحفظها الكثير عن ظهر قلب . (١)

(٢) غيزه — وهى المراثى التى نظمت لتمجيد شهداء الحرب والحانها حزينة جداً ، ولا يسع سامعوها إلا التأثر العميق لما تضمنته من المعانى الرقيقة وتعديد مناقب البطل الشهيد والمطالبة بالأخذ بثأره .

ومن هذين النوعين من الأغانى والقصائد يتكون الأدب الشركسى أو جله . وللشعراء منزلة خاصة ويحاطون بكل أنواع التقدير والاحترام . وكثيراً ما اعطيت لهم الجوائز تقديرا وتشجيعا .

والأداة الموسيقية الأكثر شيوعا لدى الشراكسة هى (الاكورديون) يليها الكمان والمزمار .

---

(١) من شعراء الشراكسة المشهورين « تمى ابراهيم » . وقد عاش هذا الشاعر الفحل فى القرن التاسع عشر ؛ وكان شعره من أرفع ما عرف فى تاريخ القريض وقد قام الأستاذان آيتك تاميتوق « شركسى » وجورج دوميزيل « فرنسى » بنشر أشعاره باللغة الشركسية مع ترجمتها بالفرنسية وشرح واف لكل منها وذلك عام ١٩٤٠ بباريس . وقد كتب مقدمة الكتاب وزير المعارف الفرنسية تقديرا منه للشعر الراقى والفن الرفيع .

وقد أخذ الروس عن الشراكسة كثيراً من الحانهم وسجلوها فى (نوتات) محفوظة ، مازالت تؤلف حتى يومنا هـــذا جزءاً من الموسيقى الروسية .

الحكم والأمثال السائرة: ــ تحتوى اللغة الشركسية على الكثير من الحكم والأمثال السائرة . وفيما يلى بعضها ، وهو مرآة صالحة لأخلاقنا وعاداتنا : ــ

١ ــ لا تعمل سرا ما يخجلك عمله جهراً
٢ ــ لاتسل مسنا بل سل مجربا
٣ ــ إن اشتغلت كالعبد اكلت كالسيد
٤ ــ دار لا امرأة فيها كأرض لا نبات فيها
٥ ــ لا تقتل كلبا فى ماء أنت شاربه ولا تكن فظا مع امرأة تعاشرها
٦ ــ لا تلد المعزة شاة
٧ ــ الحر من ثبت على قوله
٨ ــ الضيف يفدى بالروح
٩ ــ لا تتعلق بفرع لا يحملك ولا تبدأ فى أمر لا تتمه
١٠ ــ المرأة السوء تقرب أجل الرجل
١١ ــ لا تجعل العبد رد يفك ، فيستولى على سرجك
١٢ ــ إذا كلفت الصغار بعمل فاذهب وراءهم

١٣ ــ التوفيق فى العمل لا السرعة فيه
١٤ ــ إذا عميت البصائر لم تغن الأبصار
١٥ ــ لا تفعل بالغير ما لا تريد أن يفعلوه بك

القضاء : ــ كان الفصل فى المنازعات العادية بين الأفراد من اختصاص الورق (النبلاء) حسب التقاليد والعادات المرعية مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية . وأما القضايا التى لا يمكن حلها بمعرفة الورق فيحال أمرها إلى محاكم البثى (الأمراء).

وكان للطرفين المتنازعين حق انتخاب المحامين ودعوة الشهود . وتجرى المحاكمة علنية ، على النحو المتبع فى المحاكم الحديثة تقريبا وكانت تفرض المحكمة فى بعض الأحوال أن يكون لكل من الطرفين المتخاصمين كفيل يضمن نفاذ الحكم وعدم الطعن به

وكان الحكم ــ فى أغلب الأحوال ــ يقبل بلا تذمر من كلا الطرفين المتخاصمين.

وقد بلغ عدد المحاكم التى كانت موجودة فى بلاد الشراكسة فى القرن التاسع الميلادى أربعون محكمة نظامية . وقد دامت هذه المحاكم لغاية سنة ١٤٢٧ م

وحوالى هذا العام جاء الأمير الكبير (بسلان) وأسس فى كل بلدة مهمة محكمة ابتدائية برئاسة أحد النبلاء المشهود لهم بالعدل والمحافظة على العادات القومية ، وعضوية اثنين أو ثلاثة ينتخبون

من الأهالى بصفة (محلفين) . وكانت تسمى هذه المحاكم (محاكم التبرئة) وأما الدعاوى الهامة فكان ينظرها الأمير بنفسه .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ، أسس الأمير (عادل كيراى) المحاكم الشرعية للفصل فى الدعاوى الدينية .

ومن أشهر قضاة الشراكسة وأعدلهم ، القاضى (آبوق حاجى اسحاق) واليه يعود الفضل فى تعميم المحاكم الشرعية فى بلاد الشراكسة ودقة ما أصدرته من الأحكام والفتاوى الشرعية .

وقد جاء فى كتاب (تاريخ القوقاز) لمؤلفه الشركسى المرحوم عزت باشا قائد الجيش التركى سابقا بصدد الأحكام الشركسية ما يلى : —

«والحكم عند الشراكسة كان يسوى بين الغنى والفقير ، ولا يسمح للقوى بالتغلب على الضعيف . وكانت الأموال والأرواح والأعراض مصانة من غير سياج ، والأمن مستتبا بلا احتياج إلى شرطة وأعوان ، والأمور جارية فى طبيعتها من غير تكليف ولا تكلف ، الأمر الذى ساعد كثيرا على انتشار الرفاهية والسعادة بين الأمة ، وجعل للحياة الإجتماعية الشركسية قيمة فى التاريخ وحفظ هذه الأمة إلى الآن . »

التربية : كان من عادات الشراكسة أنه عندما يولد لأحدهم مولود يعهدون فى أمر رضاعه وتربيته لإحدى العائلات ، التى تتولى كافة شؤونه حتى بلوغه التاسعة أو العاشرة من عمره . ويعاد الولد بعد هذه السن إلى أهله فى مظاهر الترحيب . وتبذل للعائلة التى تبنت الطفل الهدايا الجزيلة

وهذه العادة كانت متبعة بنوع خاص عند الاعيان والنبلاء . وقد لعبت هذه العادة دوراً هاما فى تنمية روح المحبة بين الشراكسة كما إنها ساعدت على تنمية النشء تنمية صالحة مستقيمة ، بعيدة عن التدليل والترفيه التي يبذلها الوالدون عادة لابنائهم ، فيشب الاولاد وفى نفوسهم روح وثابة قوية ، شديدة الصلابة ، وهذه الروح بالذات هى التى ساعدت الشراكسة على الاحتفاظ بوطنهم طيلة هذه القرون ، وخوض المعارك بجنان ثابت وتصميم تزلزلت له جبال القوقاز وصخوره .

ولا يسمح للأولاد عند الشراكسة بأن يجلسوا فى حضرة والديهم ولا أن يظهروا أمامهم من غير داع أو سبب، كما كان يحرم على الوالد ملاطفة ابنه وتقبيله - خصوصاً إذا كان ذلك فى حضرة الجد ، ولا ينادى الولد والده باللقب المعروف (بابا) ، وانما يكون هذا اللقب من حق الجد إذا كان موجودا ، باعتباره رأس العائلة ، والمهيمن على شؤونها .

وأما الفتيات فكن يتعلمن الصناعات والفنون النسوية التى تليق بهن ، وقضاء الخدمات المنزلية وتبيح التقاليد الشركسية للفتيات الإختلاط التام بالرجال ، ولا يحتجبن ، كل هذا ضمن سياج كثيف من الحشمة والعفاف ، وياويل من حدثتها نفسها بالخروج عن هذه التقاليد وتخطى هذا السياج

ويستطيع الشركسى أن يفخر ويقرر بكل نزاهة انه بالرغم من هذه الحرية المباحة للمرأة ، لم تحدث حـــوادث مشينة بالعرض أو الاخلاق منذ عرفت هذه العادات وعرفت الأمة الشركسية على وجه الارض .

وكان من عادة فتياتنا لبس (المشد) — وهو حزام من الجلد الرقيق — لتنحيف الخصر ، وقد بطلت هذه العادة على مر السنين .(١)

وكانت النساء ترافق الرجال أحيانا فى القتال ، فيقمن بنقـــل المؤونة وتضميد الجراح وتقديم شتى المساعدات . كما ظهر من بينهن مقاتلات وفارسات ، لعبن دوراً هاما فى المعارك التى كانت تدور دفاعا عن الوطن الشركسى .

«١» ويقال أن اختراع الكورسيه الحديث منشؤه ذلك المشد الذى كان استعماله شائعا فى بلادنا وفى بعض الأمم القوقازية الأخرى

— ٣ —

تاريخنا السياسى

بينا فيما مضى طرفا من عاداتنا القومية وتاريخنا الإجتماعى ، وفيما يلى نبذة مختصرة عن تاريخنا السياسى من أقدم العصور حتى الهجرة

لم يؤسس الشراكسة ملكا وطيد الاركان على ما هو مألوف فى البلاد الاخرى بل كان نظام الحكم جاريا على طريقة حكم الاقطاع (النبلاء) وعلى أساس التقاليد القومية التى كانت لها صفة القداسة . ويرأس الحكم فى كل قبيلة أمير تنتخبه مدى الحياة ، يساعده فى الحكم نبلاء لتصريف الامور الداخلية وتطبيق العدالة والتقاليد القومية . ولكل من هؤلاء النبلاء حاشية خاصة به

ولم تتم وحدة قبائلهم السياسية إلا مرتين : —

الاولى على يد الأمير بلوتوقة أمير الخاتقواى ، الذى اتخذ لنفسه لقب (أمير الامراء) . والثانية على يد الأمير (يناك) الذى وحد القبائل الشركسية كافة تحت امرته وجعل منها أمة متماسكة الأركان . إلا أن هذه الوحدة انتهت فى كلتى الحالتين بوفاة مؤسسيها ، وعادت القبائل

الشركسية بعدوفاتهما إلى ما كانت عليه من الإنقسام والإستقلال بالرأى .

إلا أنه بالرغم من ذلك الإنقسام ، فقد كان الشراكسة يهبون للدفاع يداً واحدة عن أوطانهم متى هددها عدو من الخارج . وهذا ماحدث عند ما أغار عليهم ملوك (خيوة) سنة ٩٥١ ميلادية . وقد انتهت هذه الحروب بأسر ملك خيوة ، وقطع الشراكسة رأسه ووضعوا حوله إطاراً كتب عليه « هذا جزاء الغاصب لبلاد غيره »

وبعد انتهاء هذه الحروب ، ذاق الشراكسة طعم الراحة زمنا إلى أن عمد التتر إلى مهاجمتهم من الشمال ، والشمال الغربى ، وقامت بينهم حروب متعددة . وأخضع التتر أيام تيمورلنك كافة الولايات الروسية وأحرقوا مدينة موسكو وقتلوا من أهلها زهاء المائة ألف نسمة . واستمروا يبسطون سلطانهم عليها حتى عام ١٢٦٣ ميلادية ، ثم بدأت الولايات الروسية تتحرر واحدة إثر أخرى إلى أن ارتقى عرش موسكو إيفان (يوحنا) الرهيب عام ١٥٣٣

وكان إيفان ملكا طموحا أراد أن يؤسس امبراطورية روسية مترامية الأطراف ، فأخضع الولايات المجاورة ، وامتدت حدود مملكته إلى أطراف القوقاز الشمالية . ولم يتوقف التتر وخانات القرم عن مناوأة الشراكسة ، فحاربوهم مرارا ، وتأرجحت الحرب بين النصر والهزيمة . فارسل الشراكسة وفداً إلى الامبراطور الروسى ايفان (وكانت زوجته أميرة شركسية من القبردى اسمها ماريا) يطلبون

العون . فأجابهم القيصر إلى ما طلبوا ، وبنى فى بلاد الشراكسة ثلاث قلاع للدفاع .

وهنا تدخلت تركيا ، وأرسل الخليفة العثمانى انذاراً للامبراطور الروسى يطلب فيه هدم هذه القلاع . فما كان من الروس إلا أن استجابوا لطلب سلطان الترك ، وهدمت القلاع عام ١٥٤١

كان الشراكسة فى تلك الأثناء يدينون بالنصرانية ، ولذلك كان طبيعيا أن يعمد الشراكسة إلى طلب العون من الامبراطور الروسى النصرانى ضد التتر المسلمين . ولذلك فقد كرروا طلب العون مرة أخرى بعد عشرة أعوام عندما اشتد عليهم ضغط التتر وخانات القرم ، فأجاب الامبراطور طلبهم مرة أخرى وأعاد الروس بناء هذه القلاع المهدومة .

لقد كان هذا أول تدخل مباشر للروس فى حياة الشراكسة واستقلالهم . وسرعان ما انقلبت المعونة المجردة إلى محاولة احتلال دائم لبلاد الشراكسة .

وقد أحس الشراكسة بالخطر الجدى عندما أنزل يوحنا الرهيب قيصر الروس جيوشه فى مدينة استراخان واحتلها عنوة عام ١٥٦٦ . واستراخان كما هو معلوم مفتاح القوقاز الشمالى .

وفى عام ١٦٨٢ ارتقى بطرس الأكبر عرش روسيا . وكان أول شىء عمله أن أعلن حمايته على بلاد القوقاز ، وأوعز إلى سفرائه أن يذيعوا أن الشراكسة

« روس » . ولذلك فهو يفرض حمايتـــه عليهم . ولكن الشراكسة شعروا بأنهم حاربوا التتر ليقعوا فى قبضة الروس ، وأن بطرس الأكبر كان لايهدف إلى حمايتهم بقـــدر ماكان يهدف لإنشاء امبراطورية روسية ضخمة يتربع على عرشها ، وذلك يتطلب حتما الاستيلاء على القوقازواحتلاله حربيا. فناوأ الشراكسة هذه السياسة الجديدة ، وكانت بعض قبائلهم قد اعتنقت الدين الإسلامى(القبردى هم أول من اعتنق الإسلام) فساعد هـــذا الأمر على اذكاء نار الكفاح ضد الروس كما ساعد على ذلك أيضا أن قبائل الداغستان كلها كانت مسلمة .

وبعد وفاة بطرس ، ارتقت عرش روسيا زوجتـــه كاترين ، واستمرت هذه فى تنفيذ سياسة زوجها فى التوسع والفتح . فقرضت قوادها القوزاق على مهاجمة الشراكسة ومناوشتهم ، واستمرت هذه المناوشات زمنا إلى أن كشفت روسيا عن نياتها رسميا عام ١٧٧٣ إذ أرسلت أول حملة رسمية لإخضاع القوقاز بقيادة الجنرال فوكشانى والجنرال سوفوروف وكانت روسيا مشتبكة فى هذه الأثناء فى حرب مع تركيا . وفى عام ١٧٨٣ أتمت روسيا اخضاع القرم ، وفى العام التالى طلبت تركيا الصلح ، وعقدت معاهدة ٢١ يوليو .

إلا أنه فى عام ١٧٨٧ أرسل هرقل ملك جورجيا إلى كاترين يطلب حماية روسيا ، فارسلت تركيا انذاراً إلى كاترين تطلب فيه سحب هذه الحماية ، والقت بالسفير الروسى فى السجن . فقامت الحرب

مرة أخرى بين الدولتين ، وتقهقرت الجيوش الروسية عن أكثر الأماكن التى احتلتها فى الحرب السابقة . وفى هذه الأثناء أعلنت السويد الحرب على روسيا تؤيدها بروسيا وبريطانيا . وانتهت هذه الحروب بمعاهدة ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٠ التى أعادت الحالة إلى ما كانت عليه عند اعلان الحرب

وفى سنة ١٧٩١ احتل الروس قلعة «أنابة» وأخذوا الشيخ منصور، قائد القلعة، أسيراً ونفوه إلى سولوفكس حيث قضى آخر أيامه

وفى ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ ماتت كاترين بعد حكم ملىء بالحروب واهراق الدماء

وبعد وفاة كاترين ، استمرت الحملات المتفرقة ضد القوقاز، واصطلى الشراكسة وسائر شعوب شمالى القوقاز نيران هذه الحروب ، حتى عام ١٨٥٤ ، إذ أعلنت كل من فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا وتلتهما النمسا . وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٤ غزت قوات هذه الدول المتحالفة القرم بقوة قدرها ٥٦ الف مقاتل . وفى هذه الحروب هلك قوات كبيرة من الفريقين

وفى ٣٠ مارس عام ١٨٥٦ عقدت الهدنة ، وبموجبها انسحبت روسيا من أكثر البلاد التى احتلتها فى أوروبا ووافقت على تدمير القلاع المقامة على شواطىء البحر الأسود وضمان حرية الملاحة فى هذا البحر .

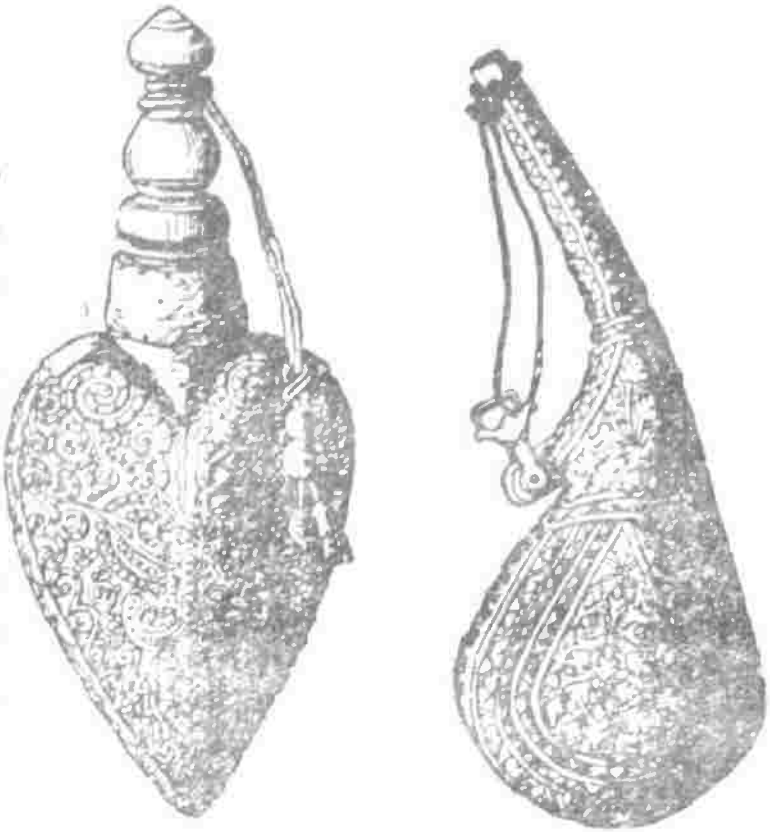

الى اليمين : صورة علبة مصنوعة من الخشب أو المعدن المطعم بالفضة لحفظ كرات الرصاص. (١ على ٢ من الحجم الطبيعى)

الى الشمال . علبة أخرى لحفظ البارود (على ٤ من الحجم الطبيعى).

إلا أن روسيا لكى تعوض عن خسارتها فى الميدان الأوروبى ، اتجهت مرة أخرى نحو شعوب القوقاز المستضعفة فهاجمتها مرة أخرى واحتلت مدينة قارس (Kars) فى القوقاز يوم ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٦ أى بعد اعلان الهدنة مع الحلفاء بمنعة أشهر . واستمرت قواتها تزحف جنوبا ، وشعوب القوقاز تقاتل هذا الغزو بتصميم وعزم لم يشهد لهما التاريخ مثيلا. إلا أن العدو كان يتدفق من الشمال بكثرة عددية هائلة ، واستعداد حربى تام ، فتوالت الهزائم على الشراكسة وسائر شعوب القوقاز

وفى العام ١٨٦١ زار القيصر نقولا الثانى جهة القوقاز ،فقابله بعض زعماء الشراكسة وطلبوا منه إيقاف القتال . فعرض عليهم القيصر شروطا تلخص فيما يلى :-

أولا — أن يترك الشراكسة أوطانهم وجبالهم ويقيموا فى الأراضى التى تعينها لهم الحكومة الروسية .

ثانيا — تنتقل الإدارة المدنية إلى حكومة الامبراطور ، الذى يعين حاكما روسيا للقوقاز له لقب نائب الملك .

رفض الشراكسة هذه الشروط التعسفية وعز على أنفسهم أن يعيشوا أذلاء فى بلادهم وهم الذين تعودوا الحرية وقاتلوا القرون والأعوام فى سبيلها فهاجروا إلى تركيا ،وبلاد الشرق الأدنى ، وشجعتهم الحكومة التركية على ذلك، كما نقل الروس بعض القبائل قسراً على السفن إلى خارج الحدود القوقازية (٢)ولم يبق فى القوقاز إلا جزء ضئيل من مجموع الشعب الشركسى لا يزيد على نصف المليون وتحولت بلادهم إلى أطلال وخرائب كنتيجة لهذه الحروب الطاحنة التى دامت أكثر من مائة عام .

وفى أثناء هذه الحروب توحدت الأمم القوقازية فى قتالها ضد

---

(١) مات هذا القيصر مقتولا بالقنابل عام ١٨٨١ بأيدى بعض الثوار الروس

(١) راجع كتاب بيك باشا « تاريخ شرق الأردن وقبائلها » — القدس ١٩٣٤ صفحة ٣٧٠ .

وكتاب Russian conquest of the caucasus-Duddly

الغزاة تحت قيادة الإمام الشيخ شامل الداغستانى الذى أوجد نظاما إداريا موحدا وحكومة مركزية قوية ، وأنشأ الكتاتيب والمدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة ومبادىء العلوم ، كما أنشأ المصانع لصنع الأسلحة والبارود . وكان يساعده فى حملاته شراكسة الكوبان تحت أسرة الحاج (كراندوق بك). وكان الشيخ شامل يقود جنوده إلى المعارك بنفسه ، وانتصر فى عدة مواقع إلى أن أسره الروس ونفوه عام ١٨٥٩ بعد أن ناضلهم أكثر من عشرين عاما، فجاء إلى الحجاز مع ولديه شافع وغازى وتوفى فيها عام ١٨٩١ .وبأسره انتهت الحروب النظامية فى القوقاز .

إلا أن الشيشن حملوا لواء النضال بعد خروج الشراكسة من البلاد وكونوا (عصابات) فدائية كانت تلحق الضرر الكثير بقوى المغتصب ومن هؤلاء القائد المشهور (زليخان) وقد ناوأ الروس عشر سنوات وقتل غدراً عام ١٩٠١ . كما نبت فى فترة الاحتلال كثير من الشعراء والأدباء الذين ناوؤا الاحتلال بشعرهم وقلمهم، ومن هؤلاء الشاعر (كوستا) — من القوشحة — وقد اضطهد ونفى وسجن مراراً ومات مريضا عام ١٨٩٨ بعد أن ألهب شعور القوقازيين بقصائده الحماسية .

وهكذا ترك الشراكسة أوطانهم وهاجروا إلى بلاد الشرق الأدنى وبعضهم إلى أوروبا وانقطعت الصلة بين من بقوا هناك وبين الذين هاجروا . ولم تمض سنوات كثيرة

حتى كان الشراكسة قد ألفوا أوطانهم الجديدة وساعدوا على إنشائها بقدر ما كانت تمكنهم أحوالهم المادية المحدودة، إذ خرج أكثرهم فقيرا تمزقه الأمراض والكوارث، مما اضطر الحكومة التركية إلى إقطاعهم الأراضى بمعدل ٢٥ — ٣٠ دونما (١) للعائلة . وكان أكثر هـــذه الأراضى مهجوراً وبعضها موبوءاً بالملاريا والأمراض ، فعمروها ، وهلك فى سبيل ذلك منهم من هلك وعاش من عاش ، وازدهرت بهم الأراضى الجرداء بعد زرعها وأنشأوا فيها قراهم ومساجدهم وانخرط قسم كبير منهم فى الجندية أحب الهوايات إلى نفوسهم وحاربوا فى صفوف الجيش العثمانى ، وكانت لهم مواقف حربيـــة مشهورة، فردوا للدولة العثمانية الفضل فضلين، كما انخرط فريق آخر منهم فى سلك الأدارة فكان منهم الولاة والحكام والوزراء الذين أداروا دفة الأمور بحنكة شهدت لهم بها الأعداء ....

وفيما يلى بيـان عن الأقطار التى حل فيها الشراكسة ، وعددهم ، وقراهم ، وشىء عن حياتهم .

تركيا — وقد هاجر إليها القسم الأكبر ويقدر عدد الشراكسة الموجودين الآن بتركيا بحوالى المليون . ولهم قرى خاصة بهم . كما أنهم محافظون على تقاليدهم القديمة، ولو أنهم امتزجوا بالحياة التركية امتزاجا

---

(١) الدونم الف متر مربع.

يكاد يكون تاما. ويبلغ عدد قراهم حوالى ٦٥ قرية وبعضهم يقيم فى المدن الكبرى مثل استنبول وأرضروم وغيرها . ومن بينهم أعضاء فى المجلس الوطنى الكبير (البرلمان). وقد أنشأوا جريدة (غوازه) (١) بعد إعلان الدستور التركى (خلافة السلطان عبد الحميد) ، وكانت تصدر باللغتين الشركسية والتركية . كما كانت لهم جمعيات تجمع شملهم وتشرف على شئونهم . ومنها جمعية التعاون الشركسية باستنبول.

سوريا — ويبلغ عدد الجالية الشركسية فى سوريا حوالى ٢٥ ألفا ومن قراهم فى قضاء الجولان :القنيطرة ، المنصورة ، صرمان، الجويزة الخشنية ، وموداريه ، عين زيوان ، السلمانية ، بير عجم ، وعدة قرى أخرى فى لوائى حمص وحلب وغيرهما . وهم يشتغلون بالزراعة وبعض الصناعات ، وبينهم عدد كبير من الشباب المتعلم ، وبعضهم يشغل الوظائف الحكومية والادارية. وتشكلت عندهم مدرسة إبتدائية شركسية ، وفرق رياضية ، وهم متمسكون بالعادات الشركسية . (٢)

شرق الأردن — يبلغ عدد الشراكسة فى شرق الأردن حوالى ٢٥ ألفاً، يسكن قسم منهم العاصمة (عمان) وهم الذين أعادوا بناءها. ولهم

(١) معناها : الدليل وتطلق كذلك على النجم القطبى .

(٢) نشرت جريدة (الأهرام) بعددها الصادر يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٤٧ أن سوريا حشدت قواتها على حدود فلسطين لاحتلالها بالاشتراك مع قوات دول الجامعة العربية فى حالة انسحاب الجيوش البريطانية من فلسطين ؛ وأنه فى مقدمة هذه القوات فرق الخيالة الشركسية . وهذا يدل على مبلغ اعتماد هذه الجمهورية العربية الفتية على قوات الشركس ؛ لما اتصفت به من الشجاعة والاخلاص .

قرى خاصة بهم منها: وادى السير، صويلح، ذاعور، الرصيفة، وبعضهم يقيم في جرش والزرقاء. ولهم في عمان نادٍ رياضي إسمه (النادي الرياضي الأهلي) وجمعية خيرية لمساعدة الفقراء ونشر الثقافة، مركزها عمان)

وبين أعضاء الإنتداب ممثلين لسائر القرى الشركسية والشيشانية(١) [illegible] وهم كذلك ممثلون في مجلس النواب الأردني ([illegible] عبد الله

١ يعتبر الشيشان من الشعوب القوقازية التي حاربت الروس بقيادة الإمام الشيخ شامل وقد لعبوا دورا هاما في تاريخ القوقاز. وكلهم مسلمون على المذهب السني.

حرس خاص من الشراكسة . وقد ارتقى منهم منصب الوزارة أصحاب السعادة والمعالى عمر باشا حكمت وسعيد باشا المفتى، وعباس باشا ميرزا.

وكان الشابسوغ أول من جاء شرق الأردن من الشراكسة . فقد خرجوا من القوقاز على ظهر إحدى البواخر . ولما كانوا فى عرض البحر اندلعت ألسنة النار فى الباخرة فاحترق ما يقارب السبعمئة نفس ومن سلم منهم نزل فى عكا . ثم حملوا إلى نابلس حيث مكثوا قرابة عام ومنها رحلوا إلى شرق الأردن واستوطنوا عمان بعد أن أعطتهم الحكومة العثمانية بعض أراضيها. ولهم حى خاص فى العاصمة يعرف بحى الشابسوغ .

وفى عام ١٨٨٠ هاجرت إلى شرق الأردن جماعات من قبيلتى القبردى والبزادوغ ، فاستوطن القبردى مدينة عمان والبزادوغ وادى السير . وفى عام ١٨٩٢ قدمت جماعات أخرى من القبردى وسكنوا عمان وأنشأوا ما يعرف الآن بحى المهاجرين . وفى عام ١٩٠١ وفدت على شرق الأردن عائلات أخرى من القبردى والبزادوغ فبنوا قرية (ناعور) وسكنوها . وآخر من قدم من الشراكسة إلى شرق الأردن كان بضع عائلات من القبردى أيضا ، استوطنت قرية الرصيفة وذلك فى عام ١٩٠٩ (١) .

وتوجد فى شرق الأردن كذلك جاليات كبيرة من الشيشان ، جاءوا

---

(١) تاريخ شرق الأردن — بيك باشا ص ٣٧٠

إلى شرق الأردن حوالى العام ١٩٠٦ . وقد منحتهم الحكومة العثمانية أراض فى الزرقاء وصويلح والسخنة أنشأوا عليها قراهم الحالية . ولهم ناد اسمه (النادى القوقازى) ، وبينهم كثير من الشباب الناهض المثقف .

ويشتغل شراكسة شرق الأردن بالزراعة . ولا يتعاطون التجارة إلا فيما ندر . وبينهم بعض الصناع ، كما إن البعض الآخر يشغل وظائف الحكومة ، والجيش ، وقوة الحدود . وتوجد الآن بينهم نهضة ثقافية مباركة ، ويسافر الكثير منهم لطلب العلم فى الخارج سنويا ومنهم الآن عدد فى جامعات مصر والعراق وسوريا وأمريكا .

فلسطين — لا يزيد عدد الشراكسة فى فلسطين على الف . كلهم من الشابسوغ يقيم أكثرهم فى قرية كفر كما ، وهى قرية صغيرة واقعة الى الشمال قرب طبريا وفى القرية مدرسة ابتدائية أميرية ، وفيها من الصناعات ما يفى بحالة سكان القرية ، من حدادة ونجارة وخلافه . كما توجد فى نواح أخرى من فلسطين بضع عائلات متفرقة .

مصر — وأما مصر فيقدر عدد الشراكسة فيها بحوالى خمسة آلاف أكثرهم هاجر إليها فى عهد الخديوى اسماعيل وبعده . أما الشراكسة الذين جاءوا إلى مصر فى القرنين الرابع والخامس عشر ، وهم الذين يعرفون فى التاريخ باسم « المماليك » فقد هلك أكثرهم فى مذبحة القلعة وما بعدها عام ١٨١١ وصودرت أموالهم ، وزوج محمد على باشا نساءهم إلى ضباطه وجنوده . وسيجىء ذكر ذلك تفصيلا فيما بعد .

وقد تأسست فى القاهرة عام ١٩٣٢ جمعية اسمها « جمعية الأخاء الشركسية » لنشر الثقافة والتعاون الأدبى والاجتماعى بين الشراكسة ولمساعدة الضعفاء والمحتاجين منهم . وكان مؤسسها المرحوم عبد الحميد بك غالب شركسيا غيوراً ، وقد قام بترجمة كتاب (تاريخ القوقاز) عن اللغة التركية وطبعه على نفقته الخاصة . إلا أنه مما يؤسف له حقا ، أن هذه الجمعية قد توقف نشاطها بعد وفاة مؤسسها ، ولم يعد القائمون بأمرها يهتمون بتنفيذ الأهداف السامية التى نص عليها قانون تشكيلها .

— ٤ —

دولة الشراكسة فى مصر

لا بد لمن يكتب عن تاريخ الشراكسة وأثرهم — بصفة خاصة — فى حياة وسياسة شعوب الشرق الأدنى ، أن يتحدث عن عصر (المماليك) الذين بسطوا نفوذهم على مصر وبلاد الشام قرابة مائة وخمس وثلاثين عاما (١٣٨٢ — ١٥١٧ م) .

ويهمنى قبل أن أتحدث عن هذه الفترة من تاريخنا — وهى كذلك فترة من تاريخ مصر والبلاد التابعة لها — أن أنفى كذبة شائعة بأن الشراكسة الذين حكموا مصر خلال تلك الفترة كانوا عبيداً ، أو كما سماهم التاريخ (مماليك) . وفيما يلى بيان ذلك :

عندما افتتح صلاح الدين مصر وأنشأ فيها الدولة الأيوبية ، كان معظم جيشه يتألف من السلجوقيين (وهم من الترك) وبعض المرتزقة والأكراد وغيرهم . ولما جاء بعده الملك الصالح بن العادل أخ صلاح الدين ، رأى أن يعزز قوته ، فابتاع الفا من المماليك الترك وجعل منهم أمراء دولته وبطانته وبنى لهم قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب فى جزيرة الروضة . ولذلك عرفوا بالتاريخ باسم

« المماليك البحرية »(١) وسرعان ما تفككت عرى الدولة الأيوبية وجلس على عرش مصر سلاطين أطفال ، وكثر حبك الدسائس ، فاستولى زعماء هؤلاء المماليك على مقاليد الحكم فى مصر . إلا أن فئة صغيرة من الجند كانوا معسكرين فى القلعة التى انشأها صلاح الدين جاءوا من القوقاز بدعوة من الخلافة العباسية ببغداد لشد أزر الخليفة العباسى ومقاومة سلطان المماليك الذى كان آخذا فى الاستفحال(٢) كانوا يرقبون تطور الأحوال بعين فاحصة ، وما أن جاء العام ١٣٨٢ للميلاد حتى كان أحد زعمائهم «برقوق» قد خلع السلطان التركى حاجى بن شعبان واستولى على الملك مكانه ، ملقبا نفسه بالملك الظاهر وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية وهو ركن الدين بيبرس البندقدارى (٣) . وقد عرفت هذه السلالة الجديدة باسم « المماليك البرجية » لإقامتهم فى « البرج » أو القلعة التى أنشأها صلاح الدين .

وهكذا ابتدأ حكم الشراكسة لمصر .

«١» تاريخ القاهرة فى الف عام تأليف البكباشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى بالقاهرة.

«٢» تاريخ المماليك للسر وليام موير .

«٣» تاريخ القاهرة فى الف عام تأليف البكباشى عبد الرحمن زكى

وفى هذه الأثناء، كما تقدم فى الفصل السابق، كانت الحروب دائرة بين الشراكسة فى القوقاز والتتر من الغرب، بتحريض الخلافة العثمانية. وكان التتر يرسلون أسراهم من الشراكسة إلى تركيا، فعمد سلاطين الشراكسة فى مصر إلى افتداء بنى جلدتهم بالمال، وسخروا رسلا أو وسطاء لهذا الغرض، فكانوا يفتدونهم ويحضرونهم إلى مصر، وهناك ينضمون إلى خدمة السلطان، ويتلقون فنون الحرب والسياسة كما كانوا يتلقون العلوم والآداب على أيدى أساتذة مدربين لهذا الغرض.

وقد فسر بعض المؤرخين — أو اكثرهم — هذه الفدية بأنها «شراء» وهذا خطأ محض، وقد فطن بعض المؤرخين إلى هذا الخطأ ومنهم أبو الفداء، والنويرى، ومن الأدلة التى ساقها هؤلاء المؤرخون على بطلان الزعم بأن سلاطين الشراكسة كانوا عبيدا أنهم أول من أبطل الرق فى العالم وذلك عام ١٤١١م

ولعله تكون قد لحقت بهم صفة المماليك لكونهم أجانب مثل المماليك البحرية — ومنهم — جنود فى جيش الأيوبيين والعباسيين فلما استولى الشراكسة على مقاليد الحكم لصق بهم اللقب الذى عرفت به السلالة السلجوقية السابقة، ثم تميزوا فى التاريخ باسم المماليك البرجية كما تقدم.

* * *

ومن أشهر ملوك السلالة الشركسية الجديدة الملك الأشرف «برسباى» . وقد بنى هذا الملك اسطولا عظيما فى بولاق عام ١٤٢٦ م أخضع به جزيرة قبرص وأسر ملكها وأحضره مكبلا بالحديد إلى مصر وبقى هناك إلى أن افتداه فنصل البندقية ، وعاد إلى بلاده بعد أن وافق على دفع الجزية لمصر

وقد وصلت حدود المملكة المصرية فى عهد برسباى إلى آسيا الصغرى وشواطىء الفرات «العراق»

ومنهم السلطان قايتباى . وقد حكم مدة ٢٨ عاما . وقد شيد جامعين يعرفان باسمه ، و «وكالات» أو «خانات» تعتبر من أجمل الأمثلة لفن الزخرفة . كما أنشأ كثيرا من الطرق والمدارس والقلاع والقناطر وسائر الآثار التى تدل على ذوقه الرفيع . وقد جاء عن هذا السلطان فى كتاب « القاهرة فى الف عام » ما يلى :

« وكان قايتباى موفقا فى أعماله . كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق والتفصيلات . ودرس آثاره كلها تدعو إلى الإعجاب والدهشة ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة طبق الأصل لأيام الناصر من حيث تشييد المبانى العظيمة . ولا تزال مساجد الشراكسة تجذب اليها المعماريين والمصورين والزائرين من نواحى العالم . »

وفى العام ١٥٠١ تولى عرش مصر السلطان قانصوه الغورى . وكان وافر النشاط قوى الإرادة ، فوطد دعائم الأمن وقضى على

الفوضى وأصلح مالية الدولة . فلما تم له ذلك أخذ فى شق الترع وإقامة الحصون على السواحل وأصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد المدرسة التى عرفت باسمه ، ودار الكتب الزكية ، وبنى مئذنة جديدة للجامع الأزهر ، وشيد جامع المقياس فى جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين فى الرميلة ، وطواحين الهواء فى مصر العتيقه ، وجدد بناء عيون المياه الموصلة للقلعة ، وكان الغورى مبجلا فى مجلسه كريما مع الشعراء ميالا للموسيقى والموسيقيين (١)

ومن أعماله الحربية الهزيمة المنكرة التى الحقها باسطول البرتغاليين عام ٦١٣ هـ. ومن أعماله السياسية تلك المعاهدة التى وقعها مع اسبانيا عام ١٥٠٢ م وفيها وافقت اسبانيا على الإمتناع عن وضع أية عقبة فى سبيل التجارة المصرية .

إلا أن نهاية هذا الملك العظيم لم تتناسب مع أعماله المجيدة وسنين حكمه الزاهرة . إذ أعلنت تركيا الحرب على مصر عام ١٥١٥ ، فسار قانصوه على رأس جنوده إلى سوريا لمقـــابلة جنود العثمانيين ، والتحم الفريقان قرب (مرج دابق). وقد قتل قانصوه فى هذه المعركة وهرسته أرجل الخيل يوم ٢٤ أغسطس من نفس السنة . فتولى الملك بعـده الملك الأشرف طومانباى ، والتحم بالعثمانيين بالقرب من مصر الجديدة (شمال القاهرة) ولكن جنوده هزمت فى المعركة ، وعاد طومانبـــاى إلى القاهرة

---

(١) تاريخ القاهرة صفحات ١٠١ و ١٠٢

لتنظيم الدفاع عن العاصمة . إلا أن السلطان سليم، القائد التركى، فاجأه بهجوم عنيف ودار القتال بين الطرفين داخل شوارع القاهرة حتى استولى السلطان سليم على القلعة وقبض على طومانباى ، وأمر بشنقه على باب زويله فى ابريل عام ١٥١٧ م

هكذا انتهى حكم هذه السلالة لمصر . وتنتهى هذا الفصل بشهادة اثنين من المؤرخين عن أعمالهم العظيمة . أحدهمامصرى هو البكباشى عبد الرحمن زكى أمين المتحف الحربى بالقاهرة ، والآخر انجليزى هو المؤرخ الكبير السير ويليام موير .

قال الأول فى كتابه (تاريخ القاهرة فى الف عام) صفحة ٩٦ ما يلى : —

« وكانوا مسلمين يؤدون فرائض الدين كاملة لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله . شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشئات الدينية . »

وقال فى صفحة ٩٨ ما يلى : —

« وفى أيام الشراكسة وعلى الأخص فى عصر قايتباى أدخلت على فن المعمار تعديلات جوهرية جديدة . فقد توسعوا فى استعمال الحجر المنحوت وبناية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة . وشاع فى عصر الشراكسة عمل الزخرفة نقشا على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص أو الملاط . فامتازت الآثار التى كثرت فى ذلك العهد بالاتقان جملة وتفصيلا » .

وقال السير ويليام موير فى كتابه (تاريخ المماليك) صفحة ٢٢٠ ما يلى : —

« لقد كانوا — أى ملوك الشراكسة — وهم صغارا ، ضليعين بالعلوم السياسية والفلسفية ، كما كانوا ماهرين فى استعمال السلاح وركوب الخيل . وقد خلفوا وراءهم آثاراً من مدنيتهم العظيمة التى لم تستطع البربرية العثمانية تجريدها من رونقها وعظمتها » .

— ٥ —

الاستقلال وما بعده

على أثر الانحلال الذى طرأ على روسيا خلال الحرب الكبرى الماضية ، أعلن كثير من البلاد التى كانت تابعة لروسيا إستقلالها ، وفى يوم ١١ مايو عام ١٩١٨ تكونت فى شمالى القوقاز جمهورية مستقلة من الداغستان والشراكسة والششن، مساحتها حوالى ٦٥ ألف كيلومتر مربع ، وسكانها حوالى الأربعة ملايين نفس. وفى عام ١٩٢٠ تم وضع دستور الجمهورية الجديد ، وانتخب الجنرال ميخائيل باشا رئيسا لأول جمهورية مستقلة فى شمالى القوقاز (والجنرال المذكور داغستانى من قبيلة الأوار) . وقد اعترفت كل من فرنسا وبريطانيا بهذه الجمهورية الجديدة ، وسائر الجمهوريات الأخرى التى تألفت فى القوقاز (وهى جمهوريات جورجيا وأذربيجان وأرمينيا) واعتمدت قناصل لتمثيلها لدى هذه الجمهوريات . وقد تكون فيما بعد مجلس إتحاد لهذه الجمهوريات ، وضع الأسس لحكومة قوقازية قوية ، على أساس الاستقلال الداخلى التام لكل حكومة . إلا أن الظروف السياسية السائدة فى ذلك الحين ، وما تبعها من ضغط الجيش الأحمر على البلاد

القوقازية، والخطر التركى من الجنوب ، دعا زعماء هـذا الإتحاد إلى طلب وضع هذه الجمهوريات تحت الانتداب الأمريكى فرفضت أمريكا قبوله ، فعرض الانتـداب على إيطاليا وهـذه رفضت قبوله أيضا (١) .

إزاء ذلك وجدت روسيا الجديدة الفرصة سـانحة لاقتناص هذه الجمهوريات وإخضاعها للنظام الجديد . وأوقعت بين أذربيجان وأرمينيا ، وجورجيـا ، وهاجمت تركيا الدولة الأرمنية من الجنـوب ، لاسـتعادة مقـاطعتى قرص وأردهان اللتين كانت أرمينيا قد ضمتهما

شركسى بالملابس القومية

---

(١) راجع كتاب And Nothing Long لمؤلفه المستر ويدهام ستيد فصل إنجلترا فى القوقاز عام ١٩٢٠ .

إلى بلادها مغتنمة فرصة الفوضى الداخلية فى تركيا. كل هذه أعطت الفرصة لروسيا للتدخل الفعلى بقصد إعادة الأمن إلى القوقاز وحماية حدودها القوقازية. وهكذا احتلت بالقوة هذه الجمهوريات الاربعة فى أواخر عام ١٩٢١. وما أن أشرف العام التالى حتى كان القوقاز بأسره خاضعا للنفوذ الروسى مرة أخرى

وقد تشكلت بعد ذلك حكومات ذاتيه وجمهوريات سوفياتية فى البلاد، ومنح الشراكسة نوعا من «الحكم الذاتى» فى رقعة مساحتها تسعة آلاف كيلومتر مربع

فتاة شركسية بالملابس القومية
«عن كتاب تاريخ القوقاز»

وسكانها حوالى نصف المليون، تابعون إداريا لموسكو. والجزء الأكبر من الشراكسة المقيمون فى تلك الرقعة من قبيلة « القبردى » والمدينة الرئيسية فى هذه المنطقة هى نالتشك ، سكانها حوالى ٦٠ الف نسمة وفيها جامعة ، ويخترقها نهر كوبان المشهور (١)

وقد تأسست كذلك فى القوقاز حكومات محلية ذاتية لكل من الششن، والابازة ، والأساتين ، إلا أن هذه الحكومات ليست لها صفة الجمهورية، وتعتبر جزءاً من الرقعة الكبيرة التى تخضع فى إدارتها إلى موسكو رأساً.

□□□□□□□□□□□

(١) مياه هذا النهر معدنية ومشهورة لمعالجة عسر الهضم وبعض الأمراض الأخرى

فريق من فرسان الشركس يهاجمون جيشا رومانيا في إحدى معاركه شمال القوقاز وقد أتى الشراكسة خلال هذه المعارك بمعجزات تعد من الأساطير.

— ٦ —

بعض آثارنا

بينا فى فصل سابق أثر الشراكسة وجهودهم فى مصر . وكيف أنهم شجعوا العلوم والفنون والآداب ، وأنشأوا المدارس والملاجى والمستشفيات للشعب ، وبينا كيف أنهم حفظوا لمصر سيادتها الداخلية والخارجية فكانت مصر فى عهدهم فى حرز من كل طامع ، قوية البأس مرهوبة الجانب . وفى عهدهم امتد النفوذ المصرى إلى سوريا وفلسطين وشرق الأردن وقبرص وسواحل البحر الأحمر ، وكان الأمن الداخلى مستتبا . ولعل شهادة المؤرخ الانجليزى المشهور السر وليم موير فى كتابه (تاريخ المماليك) المذكورة فى الفصل السابق ، خير دليل على ما نقول .

وبعد استيلاء العثمانيين على مصر ، لم يستطيعوا النهوض بكل هذه الأعباء ، فاضطربت الأحوال ، واستقل كل زعيم (بك) بإدارة أقطاعية أو (مقاطعة) . ولم يستطع الوالى التركى أن يبسط نفوذ دولته على مصر ، فقام فى البلاد حكم شاذ غريب ، تخللته حوادث عنيفة ، كما قامت مشاحنات داخلية بين (بكوات) الشراكسة ، وسواهم من

أصحاب النفوذ ، وانتهت هـــذه الحالة بأن قبض على ناصية الحكم (على بك) وهو مملوك شركسى ــ فخلع الوالى التركى ، وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، ووطد دعائم الأمن فى البلاد ، وخافه أعداء النظام والمجرمون ، فاستقرت الأحوال ، وعادت المياه إلى مجاريها .

وما أن استتب الأمن الداخلى ، حتى يمم وجهه شطر الخـــارج ، فأخضع شبه جزيرة العرب ، والقطر السورى ، وسواحل البحر الأحمر ، وأنشأ ملكا جديداً مرهوبا ، وأعلن نفسه ملكا على هذه المملكة الجديدة . وذلك عام ١٧٥١ الميلاد .

ولكن أعداءه استمروا يكيدون له فى الخفاء . وفاوضوا الحكومة التركية على اعادة النفوذ العثمانى لمصر . وانتهزوا فرصة موته عام ١٧٦٣ فاعلن أحدهؤلاء الخوارج المدعو (أبو الذهب) ــ وهو شركسى ــ ولايته وتبعيته للدولة العلية ، وهكذا عادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الأمبراطورية العثمانية .

واستمرت هذه الفوضى زمنا ، إلى أن كان هجوم نابليون على مصر عام ١٧٩٨ م بدعوى توطيد النفوذ العثمانى فى مصر . وهبت مصر كلها يداً واحدة لقتاله . واذكى الشراكسة حمية القتال ، ونظموا صفوفهم ، وقامت بينهم وبين الفرنسيين المعارك الدامية إلى أن هزموا أمام مدافع الفرنسيين فى معركة امبابه عام ١٧٩٩ . إلا أن البريطانيين

لم يرقهم هذا الانتصار، فجاءوا إلى الاسكندرية بأسطول ضخم وأكرهوا الفرنسيين على الإنسحاب من مصر يوم ٢٤ يناير عام ١٨٠٠ م .

وفى عام ١٨٠٣ ثار الأرناؤوط بقيادة محمد على باشا ضد الوالى التركى ، محمد خسرو ، وأكرهوه على الفرار. وعلى أثر فراره اندلعت نيران الثورة فى مصر، وطلب الزعماء من الباب العالى تعيين محمد على باشا واليا على مصر، فأجيبوا إلى طلبهم ، وفى يوم ١ مارس عام ١٨١١ دعا محمد على باشا زعماء المماليك إلى حفلة مقامة فى القلعة بمناسبة سفر إبنه طوسون باشا إلى الحجاز .وفى أثناء الطعام ، أطلقت عليهم النيران ، وأبيدوا الا واحداً استطاع الفرار بأن قفز بجواده من فوق سور القلعة، وصدرت الأوامر فى الوقت نفسه إلى جميع الحكام بالتخلص من الشراكسة ، فأبيد منهم الكثير ، وصودرت أملاكهم ، وفر منهم من استطاع الفرار . وبعد أسبوع من ابتداء هذه المذابح أمر محمد على باشا بإيقافها، وزوج نساء القتلى من جنوده . (١)

* * *

وكان نصيب مصر من هجرة الشراكسة على أثر الفتح الروسى محدودا، فلم يتعد بضع مئات . إلا أن هؤلاء، بالأضافة إلى من بقى من سلالة المماليك ، كان لهم بالرغم من عددهم الضئيل أثر كبير فى الشئون المصرية . إذ سرعان ماتفهم هؤلاء المهاجرون الجدد أساليب الحياة المصرية ، وتفقهوا فى اللغة العربية ، فلم تمض مدة كبيرة حتى كان منهم الضباط فى الجيش ، وأصحاب المراكز العالية فى الحكومة، وظهر منهم

---

(١) تاريخ مصر الحديث للاستاذ محمد رفعت

الأدباء والعلماء . ومن العائلات المصرية التى تمت إلى أصل شركسى: لاشين وبكتاش وأباظة (١) ورستم والدمرداش والمصرى (ومنهم الفريق عزيز المصرى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى سابقا) وذو الفقار (ومنهم جلالة الملكة فريدة)، وثابت (ومنهم محمود ثابت باشا سفير مصر فى اليونان) ، وشيرين والمنـــاستيرلى والبرديسى وغيرهم من العائلات الكبيرة التى تلعب دورا هاما فى حياة مصر الاقتصادية والإدارية والسياسية

هذا بعض من أثر الشراكسة فى حياة مصر ، وهو أثر يمتد — تبعا لامتداد النفوذ المصرى — إلى القطر السورى وسواحل البحر الأحمر .

وقد هاجر بضع مئات من الشراكسة إلى يوغوسلافيا واليونان كما هاجرت بعض عائلات منهم إلى الولايات المتحدة ، وبولونيا ، ويكاد لا يعرف عن هؤلاء شىء يذكر .

وأما فى سوريا وشرق الأردن ، فقد استصلح الشراكسة الأراضى التى اقطعت لهم ، وزرعوها ، فتحسنت بذلك اقتصاديات البـــلاد ونشطت أمور الزراعة . كما أدخلوا على أوطانهم الجديدة صناعة النقش على الفضة والزخارف الجميلة ، وهذه الصناعة يتقنها الشراكسة أيما إتقان

---

(١) يدعى فريق من الأباظيه أنهم من عرب الحجاز . إلا أن الرأى الغالب أنهم شراكسة من قبيلة « الابازة » الشهيرة بالقوقاز .

وقد جاء فى كتاب مدام كوليه (طريق الخلاص) أن المنتجات الزراعية التى ينتجها شراكسة سوريا ، مطلوبة مرغوبة للعناية الفائقة التى يبذلها الشراكسة فى نظافتها وإتقانها .

وقد امتزجت بعض العائلات التركية والسورية والأردنية والمصرية بالشراكسة عن طريق التزاوج . وذلك لما هو مشهور عن نساء الشراكسة من حسن إدارتهن لبيوتهن ، ونظافتهن ، وحسن منظرهن. ولاشك أنه نتج عن هذا الاختلاط تسرب بعض العادات والأخلاق الشركسية إلى صميم حياة أهل هذه البلاد .

وقد كان الشراكسة أول من أعاد تعمير عمان ،المدينة الأثرية القديمة التى بناها الرومان وكانت تعرف فى التاريخ باسم «فيلادلفيا» وهى اليوم عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية وقد خدم الشراكسة العائلة الملكية الأردنية بإخلاص حفظه لهم جلالة الملك عبد الله ، فانتخب من بينهم بعض رجال حرسه الخاص .

وقد ترك الشراكسة فى هذه البلاد أثراً من زيهم القومى ،فالقلبق (غطاء الرأس) يلبسه رسميا البوليس الفلسطينى ، وجنود وضباط قوة الحدود الأردنية ، بما فيهم الانجليز . وقد كان القلبق شائعا كذلك فى تركيا ، وكان الزى الرسمى للجيش التركى ، وكان أتاتورك ، محرر تركيا، يلبسه دائما إلى أن الغى هذا الزى واقتبست تركيا الأزياء الأوروبية الحديثة .

وقد أخذ أهل هذه البـــلاد عن الشراكسه بعض ما كولاتهم الوطنية، وأهمها «الشبس والباسته» وتعنى بصنعها بعض العائلات المصرية بوجه خاص ويسمونها «الشركسية». وأما فى تركيا فقد كان أثر الشراكسة واضحاً فى فنون القتال، وأخذ الأتراك عنهم نظام الفروسية كما نقله عنهم القوزاق والروس من قبـــل. كما ارتقوا إلى الوزارة، فوجهوا إدارة الامبراطورية العثمانية زمنا ليس بالقصير، وتزوج الخلفاء من نسائهم. وعندما قامت ثورة الكماليين ساعدهم الشراكسة وبذلوا دمهم فى ساحة الحرب، فشاركوا بذلك الأتراك فى بناء الدولة التركية الجديدة، ولايزال منهم هناك حتى اليوم رجال ذوو نفوذ، يخدمون وطنهم الجديد بإخلاص وحنكة وحسن سياسة (١).

وفى الحرب الأخـــيرة، حاربت الفرقة الشركسية التى أنشأها الفرنسيون فى ســـوريا بقيادة الجنرال كوليه فى صفوف الحلفاء، وساهمت فى تحرير سوريا مساهمة فعالة. وقد أشادت البلاغات الرسمية البريطانية بشجاعتهم، وخلعت عليهم أنبل الصفات. وقد نشرت مجلة «Parade» التى كانت تصدرها القيادة البريطانية فى القاهرة بعض الصور للحملة الشركسية مع مقال طويل جاء فيه مايلى :ـــ

---

(١) ومن رجالات تركيا الحديثه، الذين هم من أصل شركسى الجنرال فوزى تشقمق رئيس أركان حرب الجيش التركى السابق؛ وجلال اورباى القائد البحرى المشهور.

« الشراكسة حلفاء طبيعيون لبريطانيا منذ أقدم العصور ، وهم مشبعون بالروح الديموقراطية . ولهم تقاليد قومية رفيعة ، وشجاعتهم فى القتال لا تبارى . فهم فرسان مقاتلون بالفطرة ، ومن أشد شعوب القوقاز بأساً . وقد اشتركوا فى هذه الحرب جنبا إلى جنب مع الجندى البريطانى فى نصرة الديموقراطية واعلاء كلمة الحق . »

* * *

هؤلاء هم الشراكسة ، وهذا بعض تاريخنا . وهو تاريخ اعتز بنا وبأعمالنا ، كما نعتز نحن به ونذكره .

وأختتم هذه الرسالة بأن أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير ويلهمنا السداد فى خطواتنا وأعمالنا لكى نتمكن من تحسين أحوالنا والارتقاء إلى المستوى الذى نحن به جديرون .

احد المناظر الطبيعية الخلابة فى بلاد الشراكسة . وتنمو الاشجار فى هذه البلاد الى علو شاهق كما تكثر بها الأنهر الثلجية ومساقط المياه

من تراث الشهداء (١)

ها هو فتانا الشجاع ، الكريم ، « دزيغة » (٢) . . .
أشجع فتيان أمم « الأديغة » (٣) . . . .
خارج على جواده الأبيض الجميل .
لملاقاة العدو . . .
ودرعه اللامع ، تنعكس عليه أشعة الشمس القوية ،
فتخرج بريقا يخطف الأبصار ، ويذهل العيون . . .
والتراب يعلو من خلفه ،
التراب الذى كانت تثيره حوافر جواده بضرباتها القوية .
أنظر ! هاك هو ا والرصاص ينصب عليه من كل ناحية .
ولكنه ثابت كالطود ، راسخ على جواده ،
كما رسخت الجبال فوق أرض القوقاز . . .

« ١ » مترجمة عن الفرنسية . وقد نشر الأصل فى مجلة « بروميثيه » التى كانت تصدر بباريس قبل الحرب الأخيرة .

« ٢ » إسم الفتى

« ٣ » الأديغة — بالغين المخففة — الاسم القومى الذى يطلقه الشراكسة على أنفسهم ؛ ومعناه الانسان الكامل .

إلى الأمام ! إلى الأمام ! والعدو يتكاثر من حوله ،
ولكنهم يخرون صرعى تحت ضربات سيفه القوية .

* * *

وبعد ساعات ، كان قرص الشمس آخذاً فى الانحدار ،
وابتدأ الظلام يرخى سدوله على ساحة القتال ،
حيث تجمعت جثث القتلى ، من الفريقين . . .
والفتى الشركسى الشجاع ، ما زال فوق جواده ،
يقاتل ، ويقاتل ، ويقاتل . . .
ولكن ! . . . أنظر ! لقد أصابته طعنة قاتلة ؛
ولكنه لم يحتاج ، ولم يتزحزح عن جواده .
واستقبلت تربة القوقاز المقدسة ، دماءه الزكية .
وغابت الشمس عن الكون ، فغشيه الظلام
كما ابتدأ الظلام يغشى عينيه . . .

* * *

عند ما عاد به رفاقه محمولا على الأيدى ، وهم مطرقون ،
كانت والدته مع نساء الحى ، يتسامرن ، وينتظرن أنباء القتال .
وكانت أخته الجميلة ، راخية شعرها الذهبى الطويل ، تغنى . . .
وتنتظر أوبة أخاها « دزيغة » — بطل أمم الأديغة . . .
وعند ما دنا موكب الشهيد ، انقطع صوتها وخيم السكون . . .
فإن « دزيغة » — بطل الأديغة — قد مات !

* * *

وفى الصباح التالى ، أخذه رفاقه ، لمواراته التراب ،
ومعهم الموسيقى ، ترسل أحزن الألغام . . .
وفجأة ، شق السكون صوت فتاة . . . تنتحب .
كانت أخته ، فأسرعت إليها والدتها ، وقالت :
« أتبكين ؟ ! وهل تبكى الأديبة ؟ !
لقد أفنى من الأعداء عشرين ، قبل أن يموت شهيداً .
لنحمد الله ، فقد مات فى ساحة القتال ، ساحة الشرف ،
دفاعا عنا وعن أمته ، أمة الأديبة ! . . .

لجنة موهبة عمد :

النادى الأهلى الرياضى بعمان

تأسس هذا النادى عام ١٩٤٤ وغايته نشر الثقافة وبث الروح الرياضية فى نفوس الشباب . وفضلا عن ذلك ، يساهم أعضاؤه فى كثير من الخدمات الاجتماعية الهامة ، فاشتركوا فى اغاثة منكوبى سوريا ومشروع إنقاذ أراضى فلسطين ولجنة اليتيم العربية . وأما من الوجهة الرياضية فقد فاز فريق كرة القدم ببطولة شرق الأردن وحاز على كأس جلالة الملك عبد الله لعام ١٩٤٧ . كما قام الفريق برحلات رياضية إلى سوريا ولبنان وفلسطين رفعت رأس النادى عاليا .

وقد بلغت ميزانية النادى للعام الماضى ثلاثة آلاف جنيه، مصدرها التبرعات والإشتراكات .

ويبلغ عدد أعضائه العاملين خمسمائة عضو ، وهم ينتخبون سنويا الهيئة الإدارية المكونة من سكرتير وثمانية أعضاء .

ومبنى النادى مؤثث بأحدث الأثاث ، ويضم مكتبة لابأس بها، وبه مختلف الأدوات الرياضية .

ولعل أهل عمان لن ينسوا ذلك المهرجان الرياضى الكبير الذى أقامه النادى فى صيف عام ١٩٤٦ ، والذى شرفه جلالة الملك عبد الله بحضوره .